طريق السلامة

تأليف صاحب السيادة العالم العامل ، الذي انفرد بعصره بأنواع الفضائل

مولانا السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي قدس الله سره ورضي الله عنه

بتوجّهات مدير الدائرتين ، وهمّة القائم في الرحبين
ونائب الأقطاب الوُرّاث ، أبناء الإمام أبي العَلمين
القائم بنشر العِلم والحال المحمدي ، ورافع لواء الطريق الرفاعي الأحمدي
سيدي صاحب الفضيلة الشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة حفظه الله وأيّد به الاسلام والمسلمين

عني بكتابتها وتحقيقها وترتيب جمعها ، واكرم بتصحيحها والإشراف على سير طبعها
طفيلي مائدة الآل ، والمستشرف بأعتابهم عند نُوّابهم لخدمة النعال
أفقر الورى ، وأحقر من ترى
عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط
السقباني الدمشقي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه والمسلمين

الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هجرية

على نفقة جامعها وأخيه في الله المحسن الفاضل الحاج محيي الدين غنام أحسن الله للجميع الختام

توزع مجاناً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموفِّق المعين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد سيد المخلوقين ، وأعظم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الهداة المرضيين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فيقول العبد المفتقر إلى كرم الله وعونه في جميع المساعي ، محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي ، حقَّق الله بفضله أمله ، وغفر ذنبه وزلله ، ووالديه والمسلمين أجمعين .

هذه رسالة سميتها (طريق السلامة) فيها ما يحتاج إليه العاقل في معرفة سر الله تعالى في عالَم الخلق الإنساني ، وما اندمج من لطائف الصُّنع في هذا الطراز الإمكاني ، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

قال بعض أهل المدارك الرقيقة ، العاجزة لقلّة البضاعة عن الوصول إلى الحقيقة : لِمَ يُعذّب في الآخرة أُناس دون أناس ، وينعم أناس دون أناس ، ولا صُنْع لهم في أعمالهم بل الله سبحانه

الذي قدّر للرجل الانحراف عن الصواب ، أو الاستقامة على ما يرضاه في كل باب ، وإذا كان الأمر كذلك فهل لا يكون تفاوت الحالين منافياً للعدالة الربانية مغايراً لحكم الإفاضة الرحمانية ؟ وهذا قول يدخل من طريق ظاهره على بعض العقول التي لم تتهذب بالتبحر في علمي المنقول والمعقول ، فأردت خدمة الاخوان بإصلاح الاذهان ، وتنويرها بالحكم الحق في هذا الشأن ، والله المستعان .

لايخفى أن النوع الآدمي قد أبرزه الحق الخالق المطلق من العدم الى الوجود بحكمته ، وأقامه في مهد النعمة للوقوف بخدمته وعبوديته ، وأعطاه العقل الذي امتاز به عن غيره من اجناس العالم ، ولذلك قال سبحانه في الكتاب الكريم (ولقد كرّمنا بني آدم) ولكون العقل سر الله الأعظم ، وعالَم الجمع الأكبر ، والمدار الذي تدور عليه شؤون الدنيا والدين ، والمنار الأوضح الذي يفرق به الشك عن اليقين ، ولعظم شأنه روي عن الأمير الكرار ابن عم الحبيب المختار سيدنا الإمام علي المرتضى رضي الله عنه أنه قال :

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك ومـا تشعر
وتزعم انك جرم صغير ... وفيك انطوى العالَم الأكبر

فقد اكرم الله النوع الآدمي بالعقل (وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وهـذه الهداية هي الإكرام الأتم بإعطاء الإرادة الجزئية ، والإرادة الجزئية هي أن يكون العبد مُريداً لما يختار لا فعّالاً لما يريد ، وإنما الإرادة هي حظه في عالم خلقه ، فإذا أراد مايختار بإرادته الجزئية فعل بالإرادة الكلية التي هي إرادة الله تعالى ،وللحق سبحانه القضاء والرضاء، فإذا قامت الإرادة الجزئية من العبد لاختياراته السيِّئة صدر الفعل فيها من حكم القضاء بالارادة الكلية ، واذا قامت إرادات العبد لاختياراته الصالحة صدر الفعل من حـكم الرضاء بالارادة الكلية ، وكون العبد مُتصرفاً بإرادته الجزئية غير مستقل في الفعل فهو مجازى على إرادته باختياراته كلها ، خيرها وشرها ، وهذا هو الكسب الذي صرحت به الآيات ، وأوضحته سنّة صاحب المعجزات ، عليه أفضل الصلوات والتسليمات . وبهذا الوجه نفي الجبر والاستقلال ، وهنا نكتة جليلة ، وهي أن الإرادة غير المشيئة فإن الارادة الميل الى الفعل بعد تصوّره وإن لم يقترن بفعل، والمشيئة تصوّر الشيء واتِّباع ذلك التصور بالفعل هذا بالنسبة الى العبد ولذلك فقد نص في الكتاب العزيز(وماتشاؤون إلاّ أن يشاء الله) وفي كلام سيد البشر والجان، وشرف نوع الانسان « ماشاء الله كان » وأما إرادة الله تعـالى فهي أمرية قائمـة منه سبحانه

بـ (كن) كما في كتابه الكريم (انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ومشيئته سبحانه هي نظم الكينيّة كما في قوله سبحانه (وإذا شئنا بدّلنا امثالهم تبديلا)وهذا بحث دقيق قَلَّ من يفطن اليه فتدبر وقد صرف الله في عالمَ غيبة ـ وهو القديم العليم ـ القدرة باقتران الفعل بالإرادة الجزئية السيئة للقضاء ، وصرف القدرة باقتران الفعل بالإرادة الجزئية الصالحة للرضاء ،فاذا المخلوق صرف ميل إرادته الجزئية المفاضة اليه في عالمَ الخَلق الى امر قبيح ووقف مع إرادته في طلبه اقترنت معه الارادة الكلية التي هي من صفة القضاء فأوصلت إرادته الى قصدها والعبد مجُازى على ذلك ومُعاقب ، واذا صرف ميل إرادته الجزئية المفاضة اليه الى امر حسن ووقف مع إرادته في طلبه اقترنت معه إرادته الكلية التي هي من صفة الرضاء فأوصلته الى قصده وهو حينئذ مثاب على ذلك الفعل ، فحصول الشر بالقضاء يكون مقترناً مع الارادة الجزئية التي صرفها صاحبها ووقف عند طلبه ، وحصول الخير بالرضاء يكون مقترناً مع الارادة أيضاً كما أوضحناه ، وهناك نعلم أن العبد غير مجبور لإفاضة الارادة الجزئية اليه في عالَم الخَلق إفاضة كاملة ، وغير مستقل لكونه إن لم يُعن من الارادة الكلية لا تصل إرادته الجزئية إلى مرادها البتة ، وفي هذا لله الحجة البالغة فإنه سبحانه أفاض للمخلوق

في عالَم الخَلق قدرة التصرف بارادته الجزئية فهو عن اختياراته السيئة مسؤول ومؤاخذ ، وعن اختياراته الصالحة متاب ، وأوقفه عن بلوغ إرادته استقلالاً ليبقى في وهدة العجز فلا يزعم استقلاله بفعل مّا ، وأين له ذلك والله تعالى يقول (والله خلقكم وما تعملون) ولا تزلق أيها المحب بتلاوة هذه الآية عن سر المعونة في السيئات للإرادة من القضاء ، ولسرها في الحسنات من الرضاء فذلك خلق الله تعالى للأعمال وفي قوله تعالى (والله خلقكم) إشارة لما أفاض إلى المخلوقين في عالَم الخَلق من التصرف بالإرادة الجزئية امتناناً منه سبحانه على عباده لنفي الجبر وقال تعالى (وما تعملون) إشارة لسر المعونتين في الحالين لنفي الاستقلال في الأعمال ، وهذا يحتاج لدقة نظر فنحن عن الاختيارات مسؤولون أو مثابون ، وعن الاضطراريات غير مسؤولين ولما كان الأمر كذلك والعقل مُلزم لكل ذي بصر وبصيرة بأن يعتقد لهـــذه المصنوعات صانعاً إذ لا يمكن أن يطمئن العقل لوجود مصنوع من غير صانع فاذا عرف هذا اعتقاداً لزمه القول بالتوحيد لأنه إذا ردّ ذرّات المصنوعات كل ذرّة إلى صانع خرج عن حيطة العقل ، واتّسع عليه الخرق ، وانقلبت همته عن الوقوف مـــع حقيقة ، وإذا قال بالتوحيد اطمأنت همته ، وطاب قلبه ، ووقف مع الحقيقة التي لا تدافَع

فإن الواحدية هي الأصل في النظريات كلها ولا محيص عنهـــا ، إذ لايمكن الدخول من بابين ، ولا التوجّه إلى جهتين ، ولا الاستقرار بمركزين ، ولا البروز بوقتين ، وقياساً على ذلك وأمثاله فلا يمكن القول بإلهين ، ولا إضافة المصنوعات لصانعين (تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً) فإذا وحّد عرف أن هذا الواحد لما خلق الخلق ، وأراد إحداث هذه الحادثات لابد وقد أراد لهم الخير ، ولم يُرد لهم الشر ، ولا بد وقد نظّم لهم نظاماً ما يقوم به أمرهم ، ويصلُح به حالهم ، ويأمن به ضعيفهم من بأس قويّهم ومظلومهم من ظالمهم ، وتحسن به معاملتهم معه أولاً ، ومع بعضهم ثانياً ، وحينئذ فلا بد وأن يجعل لهذا النظام مبلّغاً يدل الخلق عليه ، ويرشدهم اليه ، ومتى كشف بسلطان العقل حجاب هذه النكتة آمن بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وهناك إذا عرف ذلك قام منتهضاً للوقوف على أسرار الشرائع السماوية التي أفيضت لساداتنا المرسلين عليهم صـــلوات الله وتسليماته أجمعين ، وإذا صار له هذا الحظ عرف أن أجمع شرائعهم عليهم الصلاة والسلام لمنافع الخلق كلهم في أمري المعاد والمعاش ، وأحكمها وأتمها وأشملها للحقائق العقلية ، والدقائق الكونية إنما هي الشريعة الطيبة المحمدية على صاحبها الف الف سلام والف الف تحية لكونه ﷺ

الخاتم الجامع المشتمل شرعه القويم على حقائق جميع الشرائع ؛ ومتى عرف هذا آمن به عليه الصلاة والسلام ، وبما جاء به من عند الله ، وهنالك يكون مؤمناً حقاً ، والإيمان عند أكثر السلف رحمهم الله ونفعنا بهم هو (التصديق بالجَنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان) وفي الشرع الإيمان عبارة عن تصديق الرسول ﷺ بكل ماعلم مجيئه به بالضرورة كالصلاة ووجوب الزكاة والصـــوم والحج والشهادتين وامتثال الواجبات والاجتناب عن المحرمات والمنهيات .

وقال الكثير الإيمان عبارة عن التصديق القلبي للرسول ﷺ بكل ما علم مجيئه به بالضرورة وهذا مذهب الشيخ ابو الحسن الأشعري والقاضي ابي بكر والأُستاذ ابي إسحاق وأكثر الأئمة من اهل السُّنة . فإذا أُكرم العبد بالعقل ولم يعتبر بالمصنوعات ، ويستدل بها على صانعها ، ولم يترقّ بمراتب الاستدلال ، والنظر الى الإيمان به سبحانه وبكتبه وملائكته ورسله ، وبما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام فحينئذ يكون مُعاقَبا عن عدم الإيمان بالخلود في النار والعياذ بالله تعالى .

وهنا سر غريب وذلك أن الله سبحانه اختار للعباد ما فيه صلاحهم ونفعهم ، وأمرهم بالعمل الصالح ، والكف عن العمل السَّيِّىء ، ونهاهم عن ظلم بعضهم بعضاً وقال تعالى (يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم

من نفس واحدة) وأمر بإطاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأكّد ذلك بإطاعة المصطفى ﷺ لما في طاعتهم من الوقوف عند الحدود ، ورعاية حقوق النوع الآدمي حتى يكون كل فرد من افراد الآدميين أميناً من الآخر على نفسه وماله وعياله ، ومجده وراحة باله ، بكل شأن كليّ وجزئي ، خفي وجليّ ، وساوى سبحانه في الحقوق بين الكبير والصغير ، والمأمور والأمير ، والغني والفقير ، فاذا آمن المخلوق به سبحانه وبرسله الذين بلّغوا هذه الأوامر الإلهية أوقفه إيمانه عن تعدّي هذه الحدود المحدودة ، فأمن الناس بوائقه ، وصح نفعه لبني نوعه الإنساني ، وقام وقعد منقاداً لأوامر الله ، منتهياً عمّا نهى عنه كما بُلّغ على لسان النبي ﷺ فحينئذ يكافئه الله ـ عن صرف إرادته الجزئية ، واستدلالاته العقلية ، ومطالعاته النظرية التي نشأ عنها إيمانه به سبحانه وبرسله وكتبه ـ بالجنة خالداً فيها ؛

وإذا صرف إرادته الجزئية للعناد وطمس نور استدلالاته العقلية بمحض الغي والفساد ، وسدّ منافذ مطالعاته النظرية بالجهل والإلحاد ، وقام عاصياً لأوامر الله ، غير مؤمن بالله ، وبرسل الله ، وبكتب الله ، هادماً لمنافع خلق الله ، فحينئذ يجازيه الله سبحانه عن ذلك بالنار خالداً فيها والعياذ بالله تعالى .

ولا يخفى أن هذه الدنيا نموذج الآخرة وذلك لتصحيح حكم النظر والاستدلال ، وفي هذا من سر الحكمة الإلهية العجائب ؛ ولنضرب لك أيها المحب من هذا مثلا فيه من رقيق الحكمة البلاغ ، وذلك أن المنعمين في الدنيا بثروة الغنى هم القليلون ، والمؤيدين بنور العلم كذلك هم القليلون ، وكل حال عال فالأقلاء رجاله ، وكل عمل جليل فالأقلاء عماله ، وذلك لأن اهل السعي الكامل لاستحصال شرف العلم ببذل العمل الصالح لنيله قليلون ، وكذلك اهل الانهماك على الدنيا تختلف مساعيهم وطرقهم وأغنياؤهم فهم قليلون ، فمن هذا علمنا أن الميل بمحض الارادة الجزئية اذا صح الوقوف التام سوعد بالارادة الكلية على قاعدتها التي مرّت ، وحصلت البُغية بمعونة الارادة الكلية بنسبة صحة الارادة الجزئية لا جبراً ولا استقلالاً ، فتدبر .

وذلك لتبقى القدرة المحضة لصاحبها (ألاَ لَهُ الخَلق والأمر) وإذا لم تصح أحكام الارادة الجزئية والوقوف التام معها لا ينفع محض الانهماك شَرَهاً على الدنيا أو تشهّياً للعلم ومثل ذلك ، فليتدبر .

وكذلك فأهل صرف الارادة الجزئية بالوقوف التام معها في طاعة الله تعالى ، ورسوله ، والتصديق بأنبيائه وكتبه ، وجميع ما أمر به ، والنفع الخالص لمخلوقاته على طبقاتهم واختلاف اجناسهم ومذاهبهم

ومشاربهم على القاعدة المرضية الشرعية باليد واللسان ، والحال والمال حتى تحصل لهم المعونة المنشقة عن الرضاء بمحض الارادة الكلية فيعلو بها عند الله مقامهم ، وتكمل غنيمتهم ، وتثبت عبديّتهم وبذلك يُعطَوْن في الجنة النعيم المقيم فهم قليلون بالنسبة الى غيرهم كما ان اهل النعيم بالعلم والمال في الدنيا قليلون (وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى) وذلك بصرف إرادته في مختاراته والوقوف عندها ومساعدة الارادة الكلية بإبلاغه القصد فلا يكون مجبوراً ولا مستقلاً تحت نمط (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) أي نعبدك بصرف إرادتنا التي افضتها الينا في عالَم الخَلق وملّكتنا التصرف بها ، ونستعينك ببلوغ الأمل في العبادة بحسن الرضاء ، وإعانة إرادتك الكلية فيما نبغيه وأنت على كل شيء قدير.

فلما صرف الكثير من اهل العقول إرادتهم الجزئيـة لمخالفة أوامر الله تعـالى بل للتعامي عن الاعتبار بمصنوعاته وسـدوا بمحض الغفلة طُرُق الاستدلال والنظر ولم يتدبروا جلال المؤثّر استدلالاً بالأثر وعدوا على حقوق النوع فأهانوا من قدروا على إهـانته من اصناف المخلوقين وأخَذَهم الشَّرَه على شهواتهم وأغراضهم فاندفعوا عن الحق المبين ، وكذّبوا الرسل ، وأخطأوا من الحق السُّبُل جازاهم بمحض عدله فأدخلهم لذلك النار ، وهو الحَكَم العدل الواحد القهار .

وهنا بقي القول فيمن وحّد الله وآمن به ولم يؤمن بكتبه ورسله فمثل هذا لا ينفعه توحيده لأنه كذّب من صدّقه الله وأمر بتصديقه وحينئذ فهو قصد أن يكون مُشرِّعاً لنفسه غير آخذ بشرع الله الذي شَرَع لعباده بواسطة رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام وهذا قد أخطأ طريق النظر والاستدلال ، وارتكب قبيح الفعال فيما اعتقد وقال ، وهو إذاً من الخاسرين ، ولا عُدوان إلاّ على الظالمين .

ويليه رجل آخر لم تبلغه دعوة الأنبياء مُطلقاً ، وقد عاش بشاهق الجبال ، ووقف عقله عن صحة النظر والاستدلال ، ولم يسمع بنبي قط ، ولا بلغه من امر الله تعالى شيء ، عاش على هذا ومات عليه ، فهذا امره مفوّض الى الله تعالى لأنه هو العليم بما تلجلج في صدره ، وقام في سره ، وانصرفت اليه إرادته ، وطمح اليه فيما يؤول الى حاله ومآله نظره ، وغايته ماذهب اليه المتكلمون والنظريون بعد اختلافات طويلة وأقوال ، إرجاع امره الى ربه ، وأهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة الرسل فغاية القول بعد الاختلافات انهم غير معذبين عند الكثير أخذاً بقوله تعالى (وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا) واختلف الأشاعرة والماتريدية في الرسول فقالت فرقة : هو العقل . والأُخرى قالت : هو النبي المبعوث . وكلا القولين ظاهر الصحة ، والحكم بشأن

العقل واستدلالاته قد تقدم ، وأما مخالفة الرسول المبعوث ﷺ فالعذاب عنها واقع لا محالة ، وذلك لهدم منار الحق ، ومعصية الله ، والتجرؤ على تكذيب رسوله ، وعلى اضرار خلقه ، ولمخالفة العقل أيضاً باستدلالاته التي لا تدافع ، وتدبر قول الله تعالى (أيطمع كل امرىء منهم ان يدخل جنة نعيم كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) أي يطمع كل منهم أن يدخل الجنة كما يدخلها المسلمون ويتنعم بنعيمها ، وينزل طيب الخاطر برياضها وقد كذّب النبي الذي ارسلته كلا لا يدخلونها ثم ابتدأ سبحانه فقال (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي من نطفة ثم من علقة ثم من مُضغة وقد نبّه الناس بهذا الفرقان الجليل على انهم من اصل واحد ، وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة والنفع العام ، للفروع العامة المنشقة عن الأصل الواحد ، بطرقها الشرعية المرعية وقد روى بسر القرشي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ « أنه بصق يوماً في كفه ووضع عليها اصبعه فقال يقول الله تعالى بني آدم أنّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بُردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى اذا بَلَغَت التراقي قلت أتصدق وأنّى لك أوان الصدقة » وفُسّرت الآية الكريمة اعني قوله تعالى (إنا خلقناهم مما يعلمون) بمعنى آخر

فقيل : من أجل ما يعلمون من الأمر والنهي والثواب والعقاب ؛ وقالوا ايضاً ما بمعنى من أي إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون لا كالبهائم ولذلك عليهم أن تفتح خزائن عقولهم للاستدلالات الصحيحة ، ولا تقف مع الغريزة البحتاء كالبهم بل تتهذب بشريف النظر الى الحقائق الكونية ، والشؤون المرئية التي هي الحيرة المحضة الملزمة بدفع الشك والوقوف مع اليقين الخالص وتكون حينئذ حيرة تعظيم لا حيرة زلل والعياذ بالله ، ومتى اندفع الشك باليقين صحّت المعاملة مع الله بالإيمان الكامل به وبكتبه ورسله وهنالك الفوز العظيم وإلاّ فالذي يصرف إرادته المفاضة اليه للبُعد عن الحق لمحض غرضه فهو أسير القضاء ، مصروع العذاب ، وعليه لله الحجة البالغة والسلام ، وأمّا قول من قال ، وارتكب بجهله طريق الضلال :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتل بالماء

فهو سفسطة لا دخل لها على الحقيقة من باب وفي ذلك الجواب قولنا :

أعطاه عقلا وفيما اختار صرّفه وقال إيّاك لا تذهب بظلماءِ
أنظر شؤونيَ في الأكوان ظاهرة والعقل يهديك للدّاني وللنائي

فراح يخبط عن غيٍّ وعن سفه يعارض الماء حتى ابتل بالماء
فهو المفرّط والأحكام تلحقه إلاّ إذا اضطر فاقبل زُهر آرائي

وحكم الأفعال الاضطرارية السماوية التي هي فوق صنع العبد وقدرته كالنوم في وقت الصلاة ، أو غيبوبة العقل أو خطأ أو نسيان أو غير ذلك مما هو مقرر عند أُولي النظر فلا عقاب بشأنه والله المعين.

وبقي قول القائل ان الرجل الغير المسلم إذا قال بالتوحيد وجرّد نفسه لنفع الناس ، وتجرد عن ضرر المخلوقين بالكلية فما الحكم فيه فالجواب إن بلغته الدعوى ولم يقبلها عناداً فهو مجازى لتكذيبه الله ورسوله ﷺ وإن لم تبلغه الدعوى بالكلية ووَّحد بحكم النظر، وجرَّد نفسه لنفع البشر فهو فيمن فُوِّض امرهم الى ربهم ؛ نعم إن القاعدة المقررة تقضي بعدم تعذيبه ، ولا تحصل له درجة اهل النعيم لأنه لم يفز بتصديق الرسل عليهم الصلاة والسلام والعمل بهديهم ، وأما دخول النار فلا بد منه غير أنهم لا يعذَّبون في النار ، ويصانون في بيت باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب ، والمراد بالرحمة أي اللطف الإلهي الذي يشمل الموحِّدين الذين لم تبلغهم دعوة الرسل بالكلية فلا يُعذَّبون وتتم كلمة الله فيمن تقيَّد بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

وهذا غاية العدل ، ونهاية الكرم ، وقد جاء في الآثار أن حاتماً الطائي وكسرى العادل كلاهما في النار ببيت ظاهره من قِبَله العذاب وباطنه مشمول برحمة رب الأرباب ، هذا لكرمه وهذا لعدله والله على كل شيء قدير .

واما عدم التّساوي في المظاهر في هذه الدار وفي اليوم الآخر ففيه تفاصيل لطيفة لا بد منها ، ولا غنى عنها ؛ وذلك أن العالَم الكوني مثاله كالبيت الذي يسكنه الرجل فإنّ قوامه يقضي بوضع حجارة الأساس في التراب السافل ، وبوضع خشب السقف في المحل الأعلى وهلم جرا وما ذلك من باني البيت لإحقار الحجر التي في الأساس ، ولا لإعلاء الخشبة التي في السقف بل لقوام البيت فإنه لايقوم إلاّ على هذا النمط ؛ وكذلك العالَم الكوني فلا يقوم نظامه إلاّ بوضع كل ذرة منه في الموضع الذي يصلح به قوام العالم ، فليتدبر .

فهذا فقير مال غير ان الكريم امتن عليه بالقوى الجسماني أو بالعقل الزائد أو بالعلم أو بسرّ كوني خفي أو بشأن برهاني جلي ، وهذا غني غير أنه محروم من العلم منبتّ الحبل عن الفضل أو إن كان عالماً كان قصير الباع عن نيل آماله القائمة بنفسه على حدّ قول القائل :

وكم حسرات في نفوس كرام

وعلى هذا فقس فقد اعطى الخالق الكريم الصانع القديم كل ذرّة مخلوقة ما يليق لها من حكم النظم لقوام بيت العالَم الكوني ، وحُسن سبك نظمه النوعي في طرزه الصنعي، وإلاّ ففي نسق الخَلق فلا تفاوت، وهذا سرٌّ بديع من اسرار الصنع ، ويدور في هذا المقام لكشف السر الأُخروي في امري النعيم والعذاب حكم الإرادة الجزئية المفاضة لكل ذرّة آدمية حالة الخَلق الأول من معنى الخبر «فرغ الله من شغلكم» أي وهبكم العقل والإرادة ومحضكم التصرف فيها وقال لكم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فارفعوا همة النظر ، وقوّة الارادة الجزئية الى مراضيه كما يريد ، ولكم منه المعونة المضمونة فحينئذ أنتم في أمان من عذابه وعقابه ، ثم مدّ لكم مائدة الكرم فقال (وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقال نبي الله عليه أتم صلوات الله « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولا عذر لذي عقل بعد أن أكرمه الله بإفاضة الارادة الجزئية اليه إن لم يصحح النظر بصدق الاعتماد عليه والاتّباع لنبيه الأعظم ﷺ .

﴿ تنبيه ﴾

جاء في القرآن الكريم إضافة الارادة لمن لم يعقل قال تعالى في الجدار كما في سورة الكهف (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ)

غير أن هذه الاضافة على وجه المجاز تشبيهاً بمن يعقل لما في الجدار من التهيؤ للانقضاض والوقوع كما تظهر العزيمة على إرادة فعل من أحوال العقلاء المريدين القاصدين لفعل ذلك الفعل ، وقد أضافت العرب الأفعال لما لا يعقل تجوّزاً وأنشد منشدهم :

ضحكوا والدهر عنهم ساكت ثم أبكاهم دماً لمّا نطق

وقال آخر :

يشكو إليّ جملي طول السُّرى قلت كلانا يا جُميل مبتلا

وفي هذا تحريض للعقلاء على صرف إرادتهم الجزئية فيما يُرضي ويحسُن عقلا وعُرفا ، ولا يُستقبح طبعاً ولا شرعاً ، ولا يخفى أن العذاب في الدار الآخرة على طبقات يقيمها العدل الالٰهي لا يظلم احد مثقال ذرّة كذا أنبأنا الله ورسوله ﷺ فكلٌّ يجازى بما عمل (ولا يظلم ربك احدا) وكذلك النعيم غير أن النعيم لما كان من إفاضات الكرم الإلٰهي فقد تحصل به العناية الربانية بأضعاف اضعاف العمل وكذلك كرمه سبحانه ورحمته (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقد قلت والمعنى لطيف يستحسنه ارباب الذوق الشريف :

إذا جازى الكريم فقد يجازي بحكم الذنب عن عدل عظيم

وإن ما مَنَّ مَن بلا حساب فحدِّث ما تشاء عن الكريم
يزجّ العبد من عتم بنور ويهدي للصراط المستقيم
ويغفر ماجناه اخو المعاصي بحكم الفضل واللطف العميم
ويستر بالعناية كل عيب كذلك عادة الرب الرحيم

هذا ما سمح به الوقت في هذا الباب مع فتور في العزم ، وكسل في العزيمة ، وقلّة بضاعة ، وهذه الرسالة المباركة بنت ساعة فالمرجو من كل من يقف عليها من المحبين والاخوان والاصدقاء والخلاّن أن ينظر اليها بعين الصفح عن القصور ، والى الله تصير الأمور ، هو البَرّ المعين الأعلى ، له الأمر في الآخرة والأُولى ، وحسبنا الله وكفى ، والحمد لله رب العالمين آمين .